الدعوة إلى الله[1]

هكذا يكون العمى

يدعو الكثير من المسلمين غير الله من الأموات حتى في أشد الكروب التي كان المشركون يخلصون فيها دعاءهم لله يرجعون إليه ويستغيثون به، كما حكى الله ذلك عنهم قال تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، ومسلموا هذا الزمان يدعون غير الله إذا ركبوا في الفلك، حتى وهم متوجهون إلى الحج، فإذا عبثت الريح بالفلك وماجت بها أمواج البحر سمعت من يقول منهم: يا سيدة زينب، ومن يقول: يا سيد يا بدوي، ومن يقول: يا جيلاني، ومن يقول يا رفاعي: ومن يقول: يا سمان، ويرفعون أصواتهم بدعاء غير الله، ويذكر كل أهل قطر أسماء من يتألهون من الموتى ولا يقولون: يا رب، إلا وهم مشركون به غيره، وسبحان الله وتعالى عما يشركون فإذا قيض الله مؤمنًا غيورًا على توحيد ربه، وقال لهم: ادعوا ربكم وحده، ولا تدعوا معه سواه غضبوا غضبًا شديدًا وسبوه وشتموه، وربما ضربوه، وعدوه كافرًا وقالوا له: إنك تنكر كرامات الأولياء، فإذا أراد أن يفهمهم أن كرامات الأولياء لا تقتضي دعاءهم من دون الله، وأن الكرامات شيء والشرك شيء آخر ﴿جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٧]، وقام يجادل عنهم ذوو العمائم الكبيرة والأكمام الواسعة والأجسام الخشبية والعقول الحجرية: بأنهم ما دعوا في الحقيقة إلا الله، وأنهم يعلمون أن هؤلاء الأولياء لا يملكون نفعًا ولا ضرًّا ولكنهم دعوهم يتقربون بهم إلى الله، ويتوسلون

(١) مجلة الإصلاح – العدد الرابع عشر – ١٥/ ٩/ ١٣٤٧هـ.

بهم؛ لأنهم مقربون عند الرب جل وعلا، وهكذا يكون العمى!! وربما شبهوا الله بالملوك الظلمة، والأولياء بالحجاب، بل كثيرًا ما يفعلون ذلك، وتعالى الله عما يقول الجاهلون علوًّا كبيرًا.

أما دعاؤهم غير الله وقولهم: إنما ندعوهم ليقربونا إلى الله وليشفعوا لنا عنده فقد قال الله تعالى في أمثالهم: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [يونس: ١٨].

فهذا الدعاء عبادة، بل هو مخ العبادة كما ورد عن النبي ﷺ[1] وكما فسر بالقرآن حيث قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، ثم قال بعدها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾ [غافر: ٦٠]، وكما قال تعالى عن إبراهيم: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤٨]، ثم قال: ﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤٩] ففسر الدعاء بالعبادة في الآيتين.

وقولهم: إنما ندعو الله وهو قصدنا في قولنا: يا بدوي، أو يا دسوقي مثلًا، إنما هو في الحقيقة كقول النصارى: الثلاثة واحد والواحد ثلاثة، وعيسى هو الله والله هو عيسى، وكقول الوجودية الملاحدة: العبد رب والرب عبد، من كل قول يناقض نفسه ويرد أوله على آخره، وينقض لاحقه تاليه، وإلا فما معنى قول أحدهم في الشدائد والكروب: يا بدوي، ويكون نفس هذا الاسم العلم على عبد معروف يكون معنيًّا به الرب جل جلاله هذا لا يقوله عاقل.

وأما قولهم إنما نتوسل بهم، فيقال له: يا عجبًا كل العجب!! أبعد أن أنزل الله الكتب وأرسل الرسل وبين لنا سبحانه ما يحب وما يكره وشرع لنا

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٧١) من حديث أنس رضي الله عنه وضعفه الألباني رحمه الله في ضعيف الترمذي.

ما نقترب به إليه وما يحبه منا من أنواع العبادات نتجاهل ذلك، ونبتدع من عندنا توسلات أخرى لم يأذن الله بها. بل نهى عنها أشد النهي وكفر متخذيها أشنع تكفير؟؟.

يا قوم بصركم الله هل أنزل الله الكتب وأرسل الرسل إلا ليعلموا الناس الوسائل التي تقربهم إلى الله والتي يحبها؟ فما لكم تتركونها وتتخذون غيرها؟ هل أمركم الله باتخاذ الأولياء والتقرب بهم؟ أم قال لكم ﴿ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥]؟ وهل قال لكم ربكم ورسوله: تقربوا إلي بأوليائي، أم قال: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾؟ ونحو ذلك من الأوامر.

الحق أن أوامره ثقلت عليكم فنكصتم على أعقابكم تتقربون بمن عملوا وبمن تزعمون أنهم أولياؤه وربما كانوا في الواقع وحقيقة الأمر غير أولياء يقول الله تعالى: في بيان ما يقرب إليه من كتابه: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ [سبأ: ٣٧]، وهنا كأن سائلًا سأل: فما يقربنا إليك يا رب إذن دُلَّنا عليه وأرشدنا إليه فقال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧]، فبين سبحانه ما يقرب إليه وبين جزاءه وذلك هو الإيمان والعمل الصالح، فلا وسيلة إلى القرب من الله ورضاه ودخول جنته سوى الإيمان والعمل الصالح، وعلى هذا تدل آيات القرآن قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ① إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ② إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [سورة العصر]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [يونس: ٩]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ١٠٧ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٧-١٠٨]، ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ

عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ [التغابن: ٩]، ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ ﴾ [التغابن: ٩] الآيات. ويقول: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٣٢].

فما لكم ثقل عليكم الإيمان والعمل فلم تتوسلوا إلى الله بهما؟ وجئتم تتوسلون بما نهاكم عنه من وسائل الكفار المؤدية إلى النار وبئس القرار.

وفي الحديث القدسي الذي ذكره البخاري في صحيحه[1] عن النبي ﷺ عن الله ﷻ أنه قال: «**من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب – أو بارزني بالمحاربة**»، ثم بين ما تنال به الولاية فقال: «**وما تقرب إلي عبدي بأفضل مما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه.....** » الحديث.

فبين لنا أن أفضل ما يتوسل به المتوسلون إليه، ويتقرب به المتقربون إنما هو الفرائض والنوافل. وليس منها دعاء الأولياء كما لا يخفي ولا الأنبياء ولا الملائكة حتى قال في كتابه المبين لمن يدعو غيره من المقربين: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ [الإسراء: ٥٦]، ثم بين لهم حال أولئك المقربين أنفسهم فقال: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [الإسراء: ٥٧] أي أن الذين تدعونهم من دوني وتزعمون أنكم تتقربون بهم إلي هم أنفسهم يدعونني ويتقربون إلي بما شرعت لهم ويرجون رحمتي ويخافون عذابي، فكيف تتقربون بهم إلي وحالهم كما وصفت لكم بين رجاء وخوف؟.

فلو أن الله تعالى أحب أن نتوسل إليه بذوات أوليائه وأنبيائه وجاههم دون الإيمان والعمل لأمر بذلك ولسماهم لنا، ولبين الرسول ﷺ ذلك قولًا

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

وعملًا، كما بين كل شيء، بل كان هذا أحق بالبيان؛ لأن التوسل إلى الله هو أصل الدين وأساسه، والمقصود من خلق الجن والإنس فقد قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] فعبادة الله تعالى والتوجه إليه وحده هي الوسيلة لا غيرها، ولكن إبليس اللعين العدو المبين للإنسان أراد صرف الناس عن عبادة ربهم، وإبطال التكاليف والعمل بالشرائع فأمرهم بتوسل من عنده لم يشرعه الله ولا رسوله؛ ذلك هو التوسل بالأشخاص دون الأعمال، وقد وجده الناس خفيفًا على نفوسهم إذ لا يكلفهم شيئًا مما في العبادات من جوع وظمأ في الصوم، وقيام وركوع وسجود في الصلاة، وبذل نفس ومال في الجهاد في سبيل الله، قال إبليس اللعين لهم: يكفيهم أن تتوسلوا إلى ربكم بالأولياء المقربين فتدعوهم وهم يتوسطون لكم عند ربكم، فأطاعوه فكانوا من الأخسرين أعمالًا ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا﴾ [الكهف: ١٠٤-١٠٦]، ثم ذكر ضدهم وهم الذين آمنوا وعملوا فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٧] الآية.

فالوسيلة الشرعية المرضية عند الله ورسوله هي ما شرعه الله وأمر به، وذلك الإيمان والعمل الصالح، فإن آمنت وعملت صالحًا نجوت وإلا فما إخالك ناجيًا.

ومن الآيات التي يلبس بها الشيطان وأولياؤه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥] الآية فيقول شيطان الإنس: أمر الله بالوسيلة فلماذا تمنعونها؟.

والجواب: إننا لم نمنع الوسيلة الشرعية التي أمر الله بها فيه الآية وغيرها

وقد أجمع المفسرون على أن معناها الإيمان والعمل الصالح.

أمر الله تعالى المؤمنين بتقواه وعطف عليها بابتغاء الوسيلة إليه من عطف الخاص على العام مثل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ ﴾ [الحديد: ٢٨]، والإيمان بالرسول ﷺ داخل في الأمر بتقوى الله فكذا ابتغاء الوسيلة، وهذا واضح لمن أراد اتباع الحق وأنصف نفسه.

فإن قيل: أما للأولياء كرامات؟ قلنا: نعم، وإن لم يكرم الله أولياءه فمن يكرم؟ ولكن الكرامات لا تستلزم دعاءهم من دون الله.

والناس قسمان: أولياء الله، وأعداء الله.

فأما الأولياء فقد وصفهم الله بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣]، وهذا من باب: الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فلا تنفل.

وأما أعداؤه فهم الذين لا يؤمنون ولا يعملون.

وقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ المتحنة: ١] الآية.

فإذا آمن العبد وعمل صالحًا كان وليًّا لله بقدر إيمانه وعمله وإخلاصه واتباع رسول الله ﷺ ويكرمه الله بما لا يحصى من الكرامات، لكن لا تظن أن الله يكرم وليه بقبول وساطته وشفاعته في مجرم يدعو غير الله، هذا محال.

على أن أولياء الله لا يشفعون لمشرك ولا يتوسطون له عند الله بشفاعة، ولا يرضون ذلك، ولو رضوا لكانوا أعداء الله لا أولياءه. وكيف يشفعون في مشرك، أو يكرمهم الله بقبول شفاعتهم في مشرك يدعو غير الله من الأموات، صالحين أو طالحين؟.

وقد ورد عن النبي ﷺ وعيد شديد فيمن شفع في أقل من ذلك. قال

رسول الله ﷺ: «**من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد حاد الله** ﷻ....» الحديث. رواه أبو داود وغيره[1]. وفي الباب أحاديث بهذا المعنى، فكيف يرضى ولي الله حقًّا أن يدعوه أحد من دون الله ثم بعد ذلك يشفع له، ويرجو أن يكرمه الله بقضاء حاجة الداعي غيره؟ هذا محال عند ذوي العقول، ومعنى ذلك أن العبد يذل ويخضع بسؤال المخلوق الميت ودعائه وطلب ما ليس في قدرته ولا في قدرة أي مخلوق، وهذا السؤال والدعاء عبادة، بل أظهر أنواع العبادة، ثم يأمل أن يقضي الله حاجته!! أي أن العبادة للمخلوق وقضاء المصالح على الخالق.

وهذا هو الظلم العظيم الذي قال الله فيه: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] فأي عاقل يرضى أن يطعم خادمًا ويسقيه ويكسوه ويقضي له مطالبه وهو يخدم غيره؟.

* * *

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد (٢/ ٧٠)، وأبو داود (٣٥٩٧) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما وصححه الألباني رحمه الله في الإرواء (٢٣١٨).